سؤال الإنسان والتنمية في فكر مالك بن نبي
جدلية "الإنسان الشاهد" و"إنسان النصف".

أد. عبد القادر بوعرفة

وحدة البحث URSH / جامعة وهران2.

bouarfah9@gmail.com

**

*- مُقدمة

يُعدّ مالك بن نبي من أهم المفكرين الجزائريين الذين اشتغلوا بمسألة الإنسان كفاعل حضاري واجتماعيً، حيث اهتمّ بدراسة الحضارة عُمومًا ضمن سلسلة سماها "**مشكلات الحضارة**"، ثم تخصص بدراسة الحضارة الإسلامية منذ ميلادها إلى غاية أفولها. حيث قدم تحليلاتٍ عميقة لفهم الماضي، واستجلاء الواقع والحاضر، واستشراف المستقبل. ليتم نظره بالتنظير للنهضة الإسلامية المرجوة، مُحددا قواعدها وشروطها، ولا سيما الشروط الرئيسة: **الإنسان، والتراب، والوقت.**

وتبدو تلك الثلاثية مهمة للغاية في عملية التَّنمية الحضارية المُستدامة، حيث إن جميع الحضارات الفاعلة لا المُنفعلة صنعت وجودها التاريخي عبر الاهتمام بالإنسان محورًا للحضارة.

إن إشكالية التحضر والتمدن في فكر مالك بن نبي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بسؤال الإنسان، فحضارتنا وقعت بين نقيضين تاريخين، الأول أنموذج تاريخي متقدم وفعال صنع حضارة مزدهرة، تمثل في "الإنسان الشاهد"، وهو إنسان متكامل حقق الاستخلاف إلى غاية سقوط بغداد (656 هـ) بالمشرق، وسقوط دولة الموحدين بالأندلس والمغرب الإسلامي (1269م). والتي كان من نتائجها ظهور " إنسان النصف"، وهو إنسان سماه أيضا بإنسان ما بعد الموحدين من الوجهة التاريخية.

عمل مالك بن نبي على إنجاز مشروعه الحضاري على خطوات مدروسة، نوضحها على النحو الاتي:

1- التأصيل:

اتجه نحو تأصيل لمشكلات الحضارة بالعودة إلى النص الإسلامي (القرآن والسنة)، والسنن الكونية التي وضعها الله للناس أجمعين، ثم عززها بنظريات علماء المسلمين كابن خلدون، وابن رشد وغيرهم. ويبدو جليا ذلك عبر نشر أول كتاب له (الظاهرة القرآنية) سنة 1946م، والذي حاول عبر متونه الإشارة إلى القرآن كفضاء رباني يصلح للتأمل والتذكر، ولا سيما حين نقرأه قراءة فينومينولوجية، حيث استطاع عبر قصة سيدنا يوسف أن يوجه المسلم نحو منهج المقاربة بين النصوص لأجل معرفة الحق. إن اختيار مالك بن نبي للظاهرة القرآنية كأول عمل في مشروع النهضة هو إقرار أن الحضارة المرجوة لن تكون إلا إذا تقدمنا نحو القرآن دراسة، وفهمًا، وتمثلاً، فهو النور والمنطلق، ومصدر الثقة واليقين.

ثم أتبعها مباشرة بروايته القصيرة (لبيك) سنة 1947م، وهي إشارة أيضًا إلى أن مشروع التحضر يجب أن يكون استجابة لمصطلح (لبيك) الذي يُترجم عقد نية التجديد، ويُحدد معالم القَصدية الحضارية. إن حج إبراهيم (الأمة الضائعة التي عادت إلى طريقها) إلى البقاع المقدسة لم يكن المقصود به الحج في ذاته، بل أراد أن يشير إلى رمزية الحج، وهو الانتقال من حال إلى حال، عبر الاستعداد النفسي والاجتماعي. ويبدو القصد واضحًا في قول مالك بن نبي في نهاية الرواية: " **أحس وكأني إنسان جديد، وأرى من حولي عالمًا جديدًا أريد العيش فيه إن شاء الله.**" (بن نبي. م، 2009: ص: 55)

وقد كتب عمر كامل مسقاوي نصًا جميلاً عن ما سبق، إذ يقول: " **فقصة (لبيك) في أعقاب (الظاهرة القرآنية) كانت في زمن مبكر من تأمل بن نبي ترسم الطريق والاتجاه بعصر جديد يكتبه الجيل القادم بعد أن تستسلم الحضارة المادية الغربية لمصيرها في مسيرة القرن كما توقع بن نبي في دراساته أنه مسرى حج الفقراء تلبية للنداء الإلهي (لبيك اللهم لبيك) في عفوية روحهم وأصالتها؛ في شخصية الجزائر التي غلفتها ظلل من ليل الاستعمار المظلم لكنها بقيت تستبطن البواعث.**(بن نبي. م، 2009، ص: 11)

2- التأسيس:

انتقل مالك بن نبي بعد التأصيل إلى التأسيس على قواعد التأصيل، مع ربطها بفهم الواقع، والاستفادة من تجارب الأمم والحضارات المجاورة، ضمن سنة التعارف والتدافع في الوقت نفسه. ويبدو جليًا أن التأسيسَ بناه على أسس واقعية متينة، تساعد على فهم مشكلات الحضارة، وتمكننا بعد الفهم والتشخيص من معرفة العوامل الداخلية والخارجية التي تُؤثّر على تقدّم الأمم وتخلّفها. إن التأسيسَ بدأه مالك بن نبي بكتابه الشهير (**شروط النهضة**) سنة 1947م. حيث ركّز فيه مالك بن نبي على دور الأفكار والقيم في بناء الحضارة، وبيّن أنّ الحضارةَ لا تُبنى إلّا على أسسٍ مدروسة تنبع من ثلاثيات شهيرة نذكر بعضها:

1- الإنسان + التراب + الوقت.
2- الأفكار + الأشخاص + الأشياء.
3- الروح + العقل + اليد.

3-الأفق:

آمن مالك بن نبي أن الحضارةَ الإسلامية ستحقق عالميتها الثانية قريبا، وأن المسلمَ حين يعي دوره في التاريخ والحضارة سيتقدم نحو الأفق الحضاري، متسلحًا **بالفكرة الدينية** أولاً والتي تدفعه أن يكون سيد الأرض دون تعالي أو استكبار لقوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَ أَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾[آل عمران: 139]، **وبالعلم والتكنولوجيا** ﴿**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم**﴾[الأنفال: 60]، وبالإيمان ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ** ﴾[الأعراف: 96]...

إن الأفقَ يتجلى في الدعوة إلى بناء الإنسان الشاهد، ذلك الإنسان الرباني، والرسالي، والإنساني.... والذي سيحقق الاستخلاف والاستئناف. ولعل كتاب (**دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين**) سنة 1972م، دلالة على الأفق المرسوم بدقة، فمالك يعتبر أن الروحَ المتطلعة لغد أفضل تهفو إلى التغيير، وترفض تفضيل الاستقالة من الحياة: " **تبقى الأرواح متطلعة. وحين لا تجد وجهة تتطلع إليها تفضل الاستقالة من الحياة.**" (بن نبي.م، 1991، ص: 23)

ويبدو جليًا أن "الإنسانَ الشاهد" هو الذي سيحقق ذلك الأفق المنشود، ولن يرض بالاستقالة، بل سيذهب نحو وجهة الحضارة والتاريخ، فوجهة العالم الإسلامي بعد الأفول لن تكون إلا الحضارة والشَّاهدية. وكنت وضحت هذه الجدلية في قولي: " **وإذا كنا اليوم نقر بتراجع المسلم عن الخط الاستخلافي الذي خُلق من أجله أصلا (الشهادة الحضارية)، فإنه يتحتم علينا اليوم وغدا أن نعود إلى ذاته دراسة وتحليلاً من أجل معرفة إمكانية البعث والإحياء، والتمهيد للعالمية الإسلامية في دورتها الثانية، أو الخاتمية المنشودة لأمة الرحمان، لأن القاعدة الأكيدة في معادلة الحضارة هي كل أفول للحضارة يعني بالضرورة أن أفول الإنسان كان السابق عنها، وبالتالي فإن البناء الحضاري يستوجب الرجوع إليه أولاً لكونه الرأسمال الحقيقي والرمزي لكل أمة تحمل أبعاد الوجود.**" (بوعرفة. ع، 2006، ص: 13)

وعليه، ما الإنسان الشاهد؟ وما عِلاقته بالتقدم والتمدن؟ وما عِلاقة "إنسان النصف" بالانحطاط والتبعية؟ وكيف نستطيع بناء "الإنسان الشاهد"؟

**

أولاً- الإنسان الشاهد: المفهوم والدلالات

كنت نحت مُصطلح "**الإنسان الشاهد**" سنة 2001 في كتابي الموسوم (**الإنسان المستقبلي في فكر مالك بن نبي**). (بوعرفة. ع، 2001، ص: 64) ، وهو مفهوم مستوحى من القرآن الكريم أولاً، ومن فكر مالك بن نبي ثانيًا، إذ أن مالك بن نبي ربط الرسالة الحضارية بمفهوم الشاهدية التي استوحاه من قوله تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا.**﴾ [البقرة: 143]

وقد ذكر القرآن الكريم لفظة الشهداء (Witnesses) 18 مرة بمعنى الحضور الواعي في التاريخ، وذُكرت ثلاث مرات بمعنى الموت في سبيل الله (Martyr).

إنّ "الإنسان الشاهد" هو كائن رسالي، واستخلافي، ورباني في الوقت نفسه، لأن الله اختاره لتلك الرسالة الربانية لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ.**﴾ [ق:37]

ويتميز الإنسان الشاهد بما يأتي:

- **الإيمان (القلب):** تبدأ الحضارةُ أول الأمر من دافعية القلب، فالإيمان شرط أساس لوجود الإنسان الشاهد، فهو الذي يمنحه القيم والمبادئ التي ينطلق منها في حياته ومشروعه الحضاري.
- **العلم (العقل):** يُمكّنه من فهم العالم من حوله، ثم فهم الرسالة من وجوده.
- **العمل (اليد):** ترجمة إيمانه ومعرفته إلى عملٍ ملموسٍ يغيّر الواقع للأفضل، ويُحقق التنمية.
- **الجهاد (المقاومة الإيجابية):** مواجهة التحديات والصعوبات، والبقاء دوما صامدًا ومقاومًا حتى ينتصر للحق والعدل، ويُحقق الاستخلاف.
- **الاجتهاد (الابتكار والإبداع): الإنسان الشاهد** كائن مجتهد، يُكون نفسه باستمرار، ويتكيف مع الواقع، ويفهم الماضي، ويستشرف المستقبل، وهو أيضا كائن مستأنف لما تم فعله من قبل السلف.

إن "الإنسان الشاهد" استقال من التاريخ لحظة سيطرة الغريزة، وخُبو الروح، وتراجع العقل، فكانت نهايته الحضارية حين أعلن سقوط بغداد على يد المغول سنة (656 هـ)، وسقوط دولة الموحدين بالأندلس سنة 1269م.

ظهر إنسان ما بعد الموحدين بعد أفول الحضارة الإسلامية، وهو مفهوم تاريخي، ترجمه مالك بن نبي إلى مفهوم سوسيو-أنثربولوجي عبر مصطلحين رئيسين، الأول "**إنسان النصف**" أو " **الكتلة المُتحركة**". ونحن سنستعمل مصطلح "**إنسان النصف**" نظرا لكثرة استعماله من قبل مالك بن نبي أكثر من مفهوم "إنسان الكتلة" والذي استعاره من الفيلسوف الإسباني خوسيه أورتغا إي غاسيت (1883-1955) صاحب كتاب (تمرد الجماهير)، والذي أيضا قدم جدلية بين "**الإنسان الجمهور**" (الكتلة) و"**الإنسان الصفوة**" (المرجو) في قوله: "**الإنسان الجمهور يحس بنفسه كاملاً. أما الإنسان الصفوة فيحتاج كيما يحس بنفسه كاملاً، إلى أن يكون معجباً بنفسه على شكل خاص، والإيمان بكماله ليس مقيداً به تكوينياً، ولا هو أصيل فيه، و إنما يأتيه من تباهيه؛ بل إن لهذا الإيمان طابعاً وهمياً وخياليّاً وإشكاليّاً. لذلك يحتاج المتباهي إلى الآخرين، فيبحث لديهم عن تأكيد للفكرة التي يريد أن تكون له عن نفسه.**" (خوسيه. إ. غ، 2011، ص: 87)

**

ثانيًا- إنسان النصف: المعنى والسياقات

يُقابل "**الإنسان الشاهد**" حضاريًا "**إنسان النصف**"، وتاريخيًا "**إنسان ما بعد الموحدين**"، وهو إنسان فقد هُويته الحضارية، وأصبح مشتتًا بين حضارات الطين والروح، ويُمثل محورًا سماه مالك بن نبي بمحور طنجة جاكارتا، وهو محور مُتخلف عن محور واشنطن موسكو.

يُعدّ مفهوم "**إنسان النصف**" من أهم المفاهيم التي ابتكرها مالك بن نبي لوصف ظاهرة خطيرة تهدد نهضة الأمم وتقدمها. يُجسّد هذا المفهوم نمطًا سلوكيًا وثقافيًا شاذًا يتميز بالتناقض بين المطالب والواجبات، وبين المعرفة والسلوك، وبين القول والفعل. يقول مالك بن نبي في أحدى محاضراته: "**إنسان النصف هو الإنسان شديد الإلحاح بطلب حقوقه، ولكنه لا يقوم بالحد الأدنى من واجباته، أو من ثقافة المتاح المتوفرة بين يديه ! يذهب للمدرسة ليمضي الساعات فقط، وهمه الأكبر الحصول على تلخيص أستاذه أو المادة المطلوبة للامتحان دون أن يكون هدفه التعلم !. يذهب للعمل و يقضي ساعاته بأي طريقة المهم بالنهاية أن ينقضي الوقت و يعود**

لحياته و يحصل على معاشه ! لا يدرس كطالب، ولا يعمل كموظف، ولا يبدع في معمل، ولا يبتكر في متجر، ولا ينجز في مشروع! هو باستمرار إنسان النصف.. يطالب بحقوقه ولا يقوم بواجباته." (بن نبي. م، د.ت، محاضرة)

إن إنسان النصف هو الذي يرى الأحداث التي تعترضه على أنها قدر مكتوب، ومصير محتوم، فلا يملك أي إرادة ليغيّر فيها أو منها شيئا (ذُهان المستحيل). وتعود أسباب هذا التصور السلبي لهيمنة روح الهزيمة في نفسه منذ أن هوى من سرح الحضارة. وفعلاً أن إفساد النَّهضات والحضارات يكون بظهور "**إنسان النصف**" في كل المجتمعات.

إن الواقعَ يُبين أن الإنسانَ الحاضر هو إنسان سلبي، ومتهافت، ولا سيما ذلك الإنسان المتحذلق بقيم التمدن، حيث يرى مالك بن نبي أن بالجزائرَ ظهر صنفين من الناس: " **ففي بلاد مستعمرة كالجزائر، نرى أنه ليس فيها طبقات، و إنما هنالك صنفان من الناس: الصنف الأول: وهو الذي يسكن المدينة، إما متعطل لا يعمل شيئا، وإما أنه يبيع بعض العقاقير والحاجات، وإما أنه " شاويش " في إدارة استعمارية، وبعض آخر نجده محاميًا أو صيدليًا أو قاضيًا، وقليل ما هم.**

والصنف الثاني: وهو الذي يسكن البادية مترحلاً بلا مواش، فلاحًا بلا محراث ولا أرض." (بن نبي.م، 1986، ص:76.)

بيد أن الفرقَ بين الصنفين أن ساكنَ الحَضر يُمثل إنسان النصف، حيث تتمثل فيه القِلة في كل شيء.

أما الثاني إنسان الفطرة هو ذلك الذي يرضى من الأشياء بالعدم، لكنه صنع لنفسه عالمًا خاصًا به، على الأقل لا يرى لنفسه امتدادًا في الآخر.

إن إنسان المدينة (النصف) والذي رضي بالقليل من الأشياء، قد تغلغلت في نفسه دواعي الانحطاط التي قضت على المدنيات المتعاقبة على بلاده من أيام قرطاجنّة إلى يومنا: " **فهو يحمل روح الهزيمة بين جو انحه، فقد عاش حياته دائما في منحدر المدينة إذ هو دائما في منتصف طريق. وفي منتصف فكرة، وفي منتصف تطور، لا يعرف كيف يصل إلى هدف، إذ هو ليس "نقطة الانطلاق" في التاريخ كرجل الفطرة؛ ولا " نقطة الانتهاء " كرجل الحضارة، بل هو " نقطة التعليق " في التطور، وفي التاريخ، وفي الحضارة. فرجل المدينة إذن يصدق عليه هذان الوصفان: " إنسان القلة " و"إنسان النصف " الذي دخل في ميدان فكرة هي الإصلاح، فمسخها (نصف فكرة) وأطلق عليها اسم " السياسة " لأنه لم يكن مستعدًا إلا لنصف جهد، ونصف اجتهاد، ونصف طريق.**" (بن نبي. م، 1986، ص: 76)

ويبدو أن إنسانَ المدينة لم يتغير حاله بعد الاستقلال، فلازالت نفسه سجينة أوهام إنسان ما بعد الموحدين: "**واليوم فإن ذلك الإنسان المقل يحاول وضع القضية الجزائرية في طريق نصف الحل، أمام المجلس المنصف بين المستعمرين وأهل البلاد ذلك المجلس الذي فرضه الاستعمار كميدان لإنصاف المثقفين.**" (بن نبي. م، 1986، ص: 76)

إن أسبابَ عدم النهوض على الرغم من كل محاولات الإقلاع الحضاري، لا سيما زمن النهضة العربية في القرن التاسع عشر تعود أساسًا إلى هذا المسلم (المُقلد)، والذي لم ترتفع به عقائده إلى مستوى ما يريده منه خالقه، لقد دمر هذا الصنف من المسلمين نفسه تاريخيًا، وجعل نفسه مغلوبًا على أمره، ومولعًا بتقليد غالبه (الغرب) في كل شيء، وحلل مالك بن نبي ذلك الوضع في قوله: "**ونحن مدينون بهذا النقص لرجل "القلة" الذي بتر فكرة النهضة فلم ير في مشكلتها إلا حاجاته ومطامعه، دون أن يرى فيها العنصر الرئيس لما في نفسه من كساد. وعليه، فإنه لم ير في الثقافة إلا المظهر التافه، فهي عنده: طريقة ليصبح شخصية بارزة، وإن زاد: فعلم يجلب رزقًا.**

ونتيجة هذا التحريف لمعنى الثقافة متجسدة في ذات ما نسميه: " المتعالم أو المتعاقل." (بن نبي. م، 1984، ص: 75)

إن حقيقةَ إنسان النّصف تظهر في السلوك اليومي لأنسان ما بعد الموحدين، وفي فكره، وفي تدينه. والعجيب أنه كلما أوغلنا في الزمن زادت أمراضه أكثر مما كانت عليه: "**والحقيقة أننا قبل خمسين عاما كنا نعرف مرضا واحدا يمكن علاجه، وهو الجهل والأمية، ولكننا اليوم أصبحنا نرى مرضا جديدا مستعصيا هو (التعالم). وإن شئت فقل: الحرفية في التعلم، والصعوبة كل الصعوبة في مداواته. وهكذا فقد أتيح لجيلنا أن يرى خلال النصف الأخير من هذا القرن ظهور نموذجين من الأفراد في مجتمعنا: حامل المرقعات ذي الثياب البالية، وحامل اللافتات العلمية. فإذا كنا ندرك بسهولة كيف نداوي المريض الأول، فإن مداواتنا للمريض الثاني لا سبيل إليها. لأن عقل هذا المريض لم يقتن العلم ليصيره ضميرا فعالا، بل ليجعله آلة للعيش، وسلما يصعد به إلى منصة البرلمان. وهكذا يصبح العلم مسخة وعملة زائفة، غير قابلة للصرف. وإن هذا النوع من الجهل لأدهى وأمر من الجهل المطلق، لأنه جهل حجرته الحروف الأبجدية**." (بن نبي. م، 1986، ص: 84).

**

ثالثًا- سمات إنسان النصف:

التعرف على "إنسان النصف" ليس بالأمر الصعب، بل يكفي أن نقوم بتجربة واقعية ذات بعد خيالي لنكتشف أراضه النفسية والاجتماعية، حيث افترض مالك بن نبي في كتابه (فكرة الأفرو-أسيوية) زائرًا فضائيًا يزور الأرض، وهو أصم، وأبكم. وبذلك يكون فاقد القدرة على التواصل مع أهل الأرض، حتى لا تكون لديه أحكام جاهزة. (بن نبي. م، 2001، ص: 76)

إن أوّل خطوة يفترضها مالك بن نبي نزول الزائر الفضائي على المحور الآتي: واشنطن – موسكو(سابقا) وقد نُغير المحور ليتلاءم مع واقعنا المعاصر في أحضان الألفية الثالثة ونفترضه على السبيل المثال: واشنطن _ طوكيو.

ثم ينعطف إلى المحور الممتد على خط (طنجة - جاكرتا)، فمن البديهي أنّ الزائرَ السماوي، يكتشف عالمًا ثانيًا، يختلف اختلافًا جذريًا عن الأوّل، لا من حيث العمران ومظاهر الحياة فحسب، بل حتى في البنية الحضارية للكائن الحي.

مما لا يدعو إلى الريبة والشك أنّ الزائرَ السماوي سيلاحظ: "**بعد أن جاب المحورين شرقًا وغربًا، شمالاً وجنوبًا، مدى الفرق والاختلاف الواقع بين المحورين، محور التقنية والتطور، ومحور الفطرة والتخلف، فمحور واشنطن -طوكيو محور الحضارة والتقدم، ومحور الإنسان المُحرك للتاريخ، بينما المحور الثاني محور "الإنسان التابع" والمغلوب على أمره، أو كما قال طه حسين و فرانز فانون " المعذبون في الأرض"**." (بوعرفة. ع، 2006، ص:44)

إن التوصيفَ السابق، يجعل المتأمل لأحوال الحضارة يدرس كل محور على حدة، ليعرف أسبابَ التفوق، وفي المحور الثاني أسباب التخلف والانحطاط، ويبدو أن أولَ سبب هو الإنسان.

إن إنسانَ محور طنجة – جاكرتا هو إنسان خارج التاريخ، مغلوب على أمره، اجتمعت في ذاته: " **الأمراض شبه الصبيانية تدخل تحت إطار "ما ضد الإنسان" (Anti-homme) وبالتالي تعتبر نقطة خطيرة في مجال البعث الحضاري، لأنها مرتبطة بالمرحلة الأخيرة تعكس مرحلة الوهن الفكري والنفسي الناتج عن تراكم مجموع الأمراض، التي أدت إلى إخراج المسلم من المركزية الحضارية والتاريخية إلى هامش التاريخ أو مزبلة الحضارة كما قال بن نبي، إذ تحوّل الإنسان إلى مجرد صبي في حركة الحضارة والتاريخ**." (بوعرفة. ع، 2006، ص: 84)

ويُمكن حصر تلك الأمراض أو السمات فيما يأتي:

1- الاغتراب الهُوياتي: تحول المسلم في عالم الكبار إلى أهلي (ذهنيات الأَهلي)، إذ فقد هويته الحضارية، ممّا أدى به إلى الشعور بالضياع التاريخي، والاغتراب الحضاري. فإما يتصرف كالنعامة؛ فيدفن رأسه في الأرض (الماضي) ليرسم لنفسه عالمًا سحريًا (كنا = الكمال)، أو ينسلخ من جلده، فيغدو تائهًا في متاهات حضارة الطين.

بيد أن أكبر بلاء هو الاعتقاد بالكمال على الرغم من الانحطاط والتخلف، وذلك مرض قاتل، يقول بن نبي: "**ومصدر هذا البلاء معروف، فمن المسلم به الذي لا يتنازع فيه اثنان أن الإسلام دين كامل، بيد أن هذه القضية قد أدت في ضمير ما بعد الموحدين إلى قضية أخرى هي: (نحن مسلمون) فنتج:(إذن نحن كاملون)**." (بن نبي. م، 1986، ص: 85)

يحاول إنسان النصف التغلب على الاغتراب عبر ألية المدح والفخر، وهي محاولة تغطية مركب النقص من الآخر، فيلجأ كما قال بن نبي إلى: " **استخدام نزعة المديح وأدب الفخر والتمجيد كوسيلة للتغلب على مركب النقص الذي اعترانا إزاء سلطان الثقافة الغربية، واضح أنهما وسيلة للتخضير والتسلية تعزل الفكر والضمير عن الشعور بالمتاعب الحقيقية.**" (بن نبي.م، 1986، ص: 60)

2- الاستلاب الحضاري :(الزَبونية الحضارية) يُصبح إنسان النصف تابعًا للغير (الغالب) ويُقلّده دون وعيٍ منه، دون تمييز بين ما يناسب ثقافته وحضارته وما لا يناسبها أصلا، إذ هو يتعامل مع الآخر تعامل الزبون لا التلميذ،

عكس الإنسان الياباني الذي تحول في لحظة تاريخية حرجة إلى تلميذ ذكي تعلم من الغرب ما أفاده في تحقيق القفزة الحضارية: " **فحين كان الطالب الياباني يذهب إلى الغرب في أواخر القرن الماضي، كان يذهب ليتعلم التقنية، مع الحفاظ المتشدد على أخلاق بلاده، كما سيذهب بعده، ذلك التلميذ الصيني المتواضع (نسيان هماسين) ليتعلم في مختبر (جوليو- كوري) بباريس، وليعود لبلاده بالمعلومات النووية التي تدهش العالم اليوم. بينما غالبا ما يحدث للطالب، الذي يذهب من بلادنا، أن يعود بشهادة ولكن بعد أن يترك روحه في مقاهي أو خمارات الحي اللاتيني أو في النوادي الوجودية بـ (سان جرمان).**" (بن نبي. م، 2002، ص ص : 121، 122)

3- مركب النقص: (النكوص الحضاري) يعاني "إنسان النصف" من أزمةٍ نفسيةٍ ناتجةٍ عن شعوره بالضياع وفقدان الهوية، فهو يحاول قدر الإمكان تغطية هذه النقص بالتشبه بالغرب، وهو بذلك يُقر بمركب النقص ولا ينفيه، حيث يؤكد بن نبي ذلك في قوله: "**لقد أحدثت هذه الصدمة، عند قبيل من المثقفين المسلمين، شبه شلل في جهاز حصانتهم الثقافية، حتى أدى بهم مركب النقص إلى أن ولوا مدبرين أمام الزحف الثقافي الغربي، وألقوا أسلحتهم في الميدان، كأنهم فلول جيش منهزم في اللحظة التي بدأ فيها الصراع الفكري يحتدم بين المجتمع الإسلامي والغرب، فأصبح هذا القبيل من المثقفين يبحث عن نجاته في التزي بالزي الغربي، وينتحل في أذواقه وسلوكه كل ما يتسم بالطابع الغربي حتى ولو كان هذا الطابع ليس إلاّ مظهراً لا شيء وراءه من القيم الحضارية الغربية الحقيقية.** " (بن نبي. م، 1969، ص: 10)

ومن أبرز محطات مركب النقص ما يأتي:

1.3- **السلبية والاستسلام**: يتميز إنسان النصف بالسلبية والاستسلام للأمر الواقع، لا يبذل أي جهد للتغيير، ويستسلم للظروف بدلًا من مقاومتها، فإن سُئل عن الأمر فإما تضخيم إلى حد الاستحالة، أو تبسيط لحد السهولة.

إن إنسان ما بعد الموحدين أصيب بذهانين (Deux psychoses) السهل والمستحيل. وذهان السهولة ينطلق من شعار" كل شيء سهل" مما يوحي بعدم الجهد أو النشاط ويفضي إلى الكسل والدعة، فالمسلم اللاّشاهدي يسهل الأمور حتى تعتقد أن الأمرَ لا يحتاج إلى أدنى طاقة أو عمل، مما يؤدي إلى عدم التخطيط والتقدير، فيظهر داء التأجيل أحد ألد أعداء الوقت، فيحدث الشلل الاجتماعي بسبب خلل الوظائف في السلم الاجتماعي:" **وهذان الشكلان من أشكال الخيانة يتمثلان في العالم الإسلامي الحديث في صورة نوعين من (الذهان Psychose) : فإما أن يتمثل في صورة النظر إلى الأشياء على أنها (سهلة)، وهو قائد ولا شك إلى نشاط أعمى، (كما كانت الحال في قضية فلسطين)؛ وإما أن يأخذ صورة النظر إليها على أنها (مستحيلة)، فيصاب النشاط بالشلل وهو ما يحدث غالبا في شمال إفريقية.**" (بن نبي.م، 1986، ص: 88)

2.3- **التناقض بين المعرفة والسلوك:** يتمتع إنسان النصف بمعرفة واسعة، ويحفظ نظريات عدة، لكنه غير قادر على أن يُجسدها في سلوكه وتصرفاته. ويمتلك ثقافة غزيرة، لكنه لا يطبقها على أرض الواقع.

4- هيمنة اللاشعور الجمعي: وهو سلوك ينزع نحو العتاقة القاتلة، والعتاقة ضد الأصالة، حيث أنها نوع من الركون إلى المُتخيل الماضوي السلبي، وهو نوع من التبعية نراه متمثلا في بعض السمات المرضية، نذكر بعضها:

1.4- الدروشة: مرض أصاب إنسان ما بعد الموحدين، حيث تخلى الإنسان عن العقل والتفكير النيّر، واتجه صوب الدروشة (عكس التصوف)، وأصبح المسلم ينتظر الكرامات والمعجزات لتغيّر حاله، ويستند على الآحاجي والرمزيات ليفسر أحواله، فتاه المسام في عالم اللامعقول: **" ومن خلال ما سبق نلاحظ أنّ الفكرة عائق مشل إذ لم تكن أصيلة لمرجعياتها ممتلكة لعنصر الفاعلية. أمّا إذا كان الفكر يصنع أفكار الدروشة والأحاجي، وينشد أوهام الإشراق الزائف فإنّه لا محالة سيجعل الإنسان مجرد دمية تحركها خلف ستائر مسرح الحضارة أيدي غريبة.** " (بوعرفة. ع، 2006، ص: 59)

2.4- **السفسطة وداء الجدل**: يتجلى داء الجدل في واقعنا المعاصر تجليًا واضحًا في مواقف المفكر، والمثقف، والأديب، والذي لا يريد أن يسمع لخصمه أو منتقده، فلا تهمه الحقيقة إن كانت في غير مذهبه ونحلته. إن المصلحَ الديني لا يسمع للمفكر اليساري أو اليميني، والعكس صحيح، رغم وجود نقاط مشتركة لو اتفقوا عليها لأمكنهم حل كثير من الأزمات: " **لم يكن المتجادلون يبحثون عن حقائق و إنما عن براهين، ولم يكن المجادل ليستمع إلى محدثه، بل كان يغرقه في طوفان من الكلام. والجدل من أضر الأمور على كيان الأمة، إذ هو يقوم في عمومه على هيام أحمق بالكلمات."** (بن نبي. م، 1986، ص: 58)

3.4- **الخطابة أو الحرفية**: حين تنطوي النفس على أغوارها العميقة في متاهات اللاشعور الجمعي وينصاع الأنا للهو، يجد السلوك الغريزي طريقًا سهلاً للتواجد والتَّحقق. وتتعمق الأزمة عندما يفقد العقل رشده ويسبح في يم التيه، ساعتها يتجه السلوك العام للجماعة إلى مواطن القداسة، ومن أهمها اللغة، إذ ينشأ سلوك سحري غريب، يتجه نحو اللفظية المتمثلة في إجادة الكلام والهيام به، وتصبح الألفاظ معيارَ الكمال وتمام بلوغ المرام، وبدل أن يكون العقل والقلب و اليد معايير الوجود، يصبح اللسان وما يلوك من ألفاظ خلابة قد لا تحمل أية معنى ولا فكرة هو المعيار: "**وهنا يؤدي بنا المقام إلى الحديث عن الحرفية، فلقد أبدعت العبقرية العربية أجمل لغات العالم، ولكن هذه العبقرية كانت في موقفها مما أبدعت، كالمثّال الذي هام بتمثاله، وقد أبدع مناقشه، والغرام بالكلمات أخطر من الغرام بالمعدن أو الرخام أو الحجر، فهو يؤدي أولا وقبل كل شيء إلى أن يفقد الإنسان حاسة تقدير الأمور على وجهها الصحيح، وهو أمر ضروري لكل جهد إيجابي من أجل البناء.** " (بن نبي. م، 1986، ص: 58)

5- العطالة الحضارية: (النشاط المنقوص) إنسان النصف عالة على نفسه وعلى المجتمع، فلا يعمل ولا يجتهد، وإن عمل فلا يتم عمله، بل يتركه في المنتصف، وتتجلى تلك العطالة فيما يأتي:

1.5- مطالبة بالحقوق دون الوفاء بالواجبات: يُركز إنسان النصف على المطالبة بحقوقه، دون الاهتمام بواجباته. كما يُطالب بالتغيير والتقدم، لكنه لا يبذل أي جهد لتحقيقه، ولا يسعى إلى أخذ أسبابه بالقوة، كما فعل الإنسان الياباني.

2.5- **غياب الإبداع والمبادرة:** يفتقر إنسان النصف إلى روح الإبداع والمبادرة. ويعتمد على الآخرين في حل مشكلاته لا سيما الغرب المُتطور أو حتى بعض دول الشرق الأسيوي (كالصين حاليًا)، بدلًا من الاعتماد على قدراته وإمكاناته، والغريب في الأمر أن حتى العمالة البسيطة نجد بعض الدول العربية (الخليج) يستقدمونها من الخارج لتقوم بأعمال كان من الضروري أن يقوم بها أهل البلد. ونظرا لكسله وفساد

ثقافته، يلجأ دوما إلى تكديس الأشياء ظنًا منه أن تجميع الأشياء يصنع حضارة، وأن اقتناء تكنولوجيا يُخرجه من التخلف.

3.5- **نزعة التكديس**: داء التكديس مرض شامل مس الفلاح، والتاجر، والقائد، والمثقف، والطالب، .. وأخطر مظاهر التكديس على الإطلاق ما تعلق بالأفكار، فالثقافة الإسلامية المعاصرة تزخر بكم هائل لا طائل منه من المعلومات والمعارف، ولم تُفد المسلم في حياته ولا معاركه ولا تحدياته، بل كانت سببًا في هزائمه وتخلفه. إن من يكدس أطنان الحديد والإسمنت والحجارة لا يبني أبدا بيتًا، لأن ما يُكدس يدخل في نطاق الضائع. (بن نبي. م، 1986، ص:46)

4.5- **الذرية**: رغم كونها مجرد عرض إلا أن الفكر الإسلامي لم يستطع التحرر منها، قياسًا والعقل الياباني الذي عدلها في غضون نصف قرن من عمره الحضاري: " **فلن يكون هذا العجز سوى عارض خاص بعقل ما بعد الموحدين، ولم تستطع الحركة الحديثة أو حركة الإصلاح تعديل الاستعداد العقلي في هذه الناحية تعديلاً جوهريًا**." (بن نبي. م، 1986، ص: 84)

إن الذرية تعكس مأساة إنسان استيقظ دون (هزة قلب)، ودون توتر فكري، أو قلق حضاري يدفعه إلى التقدم وتحقيق النموذج.

5.5- **الوثنية**: إن العقل الإسلامي منذ الانحطاط يعيش في دوامة الأوثان، مما نتج عنه ضعف العلاقات وتمزق الشبكة الاجتماعية، وعودة عقلية التّجمع المُفكك. ويلخص بن نبي الجدلية السابقة في قوله: "**هذه الجدلية تحدد طبيعة علاقة الفكرة –الشخص، التي تنقلب عند التطرف إلى علاقة فكرة-وثن، وبفضل تلك العلاقات المنجرفة نحو التطرف فإن الشعب الجزائري أقام قبب مرابطيه وأوليائه، وحافظ على عكوفه عليهم عبر قرون ما بعد الموحدين** ". (بن نبي. م، 2002، ص: 96)

6.5- **نزعة الرفض**: يرى بن نبي أن الرفض ينميه موجهوا الصراع الفكري من أجل تعطيل العقل النقدي لدى الأمم غير الغربية، حيث إن الرفض لم يخدم إنسان ما بعد الموحدين إلا نادرًا، لكنه خدم الفكر الموازي (الاستعمار) إنه يتجلى في عالم السياسة، فالزعيم السياسي يعتقد الرفض ميزة والنقد ضعفًا، كما نلاحظه في شخص الفقيه عندما لا يعترف بالخطأ في الفتاوى حتى وإن برهنوا له على فسادها من صحيح الكتاب والسنة.

يعتبر مالك بن نبي عقدة الرفض عائقًا مشلاً لمصالح الأمة في جميع جوانبها: "**ويجب أن أضيف بأنها لم تكن المرة الأولى، التي يعترضني في الطريق هذا العائق المشل (الرفض)، والذي يبدولي الآن، بعدما مر بعض الزمن، أنه لم يعق في شيء مصالح الاستعمار، وإنما أعاق القضية الوطنية**." (بن نبي.م، 2002، ص: 42)

يتبين عبر هذه السمات جليًا أن إنسان ما بعد الموحدين كان يتجه صوب مزبلة الحضارة ومقبرتها، وأن نتائج خروجه من التاريخ كانت معلومة بالضرورة، قد نجد بعض توقعاتها في مقدمة ابن خلدون منذ قرون خلت، وبالفعل تجسدت في نتيجتين عامتين:

1- **الانحطاط الحضاري:** دخل "إنسان النصف" في انحطاط مرير منذ أن تغلبت عليه الغريزة، فتسببت في خروجه من التاريخ.

2-ضعف الشخصية: يساهم انتشار ثقافة "إنسان النصف" في ضعف الشخصية المجتمعية، وفقدان الثقة بالنفس، وعدم المبادرة، والركون إلى السهل والبسيط، وقبول العادي والنفور من اللاّمألوف.

**

رابعا- جدلية "الإنسان الشاهد" و"إنسان النّصف" من الانحطاط إلى الانبعاث

يكمن الجدل بين مفهوم "الإنسان الشاهد" و"الإنسان النصف"، فيما سماه مالك بن نبي **بالتداول التاريخي**، حيث إن كل منهما هو نهاية الآخر، إذ يظهر **إنسان النصف** حين يأفل نجم **الإنسان الشاهد** ويخرج من التاريخ، ويتجلى ذلك عبر الثلاثية البنابية: **الميلاد، القوة، الضعف.**

يُقدّم مالك بن نبي عبر تحليله لجَدلية "الإنسان الشاهد" و"الإنسان النصف" إطارًا فكريًا لفهم واقع الأمة الإسلامية، وأزماتها، وعوائقها، ويهدف إلى تحفيز قادة الأمة وعلمائها على العمل لبناء "الإنسان الشاهد" كأنموذج مستقبلي يُعيد تشكيل المشهد الحضاري العالمي، باعتبارها يحمل رسالةً إلهيةً (الاستخلاف) ومسؤوليةً أخلاقيةً لنشر الخير والعدل في العالم (الشهادة)، ويستأنف في الوقت نفسه مشروع سلفه (الرسالة)، الذي استطاع أن يُثْبت وجوده عدة قرون.

وقبل الانخراط في عملية بناء الإنسان الشاهد من معكوس إنسان النصف (إنسان ما بعد الموحدين) يجب الوقوف عند العتبات الآتية:

1- وعي حركة التاريخ:

عبر وعي سنة التداول التاريخي لقوله تعالى: ﴿**وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**. ﴾ [أل عمران: 140]. ثم إدراك وفهم سنة التغيير الإيجابي لقوله تعالى: ﴿**حتى يُغيروا.** ﴾ [الرعد: 11].

ثم التحلي بالإيمان بالله، وأنه سيُحقق وعده، وأن الوعد الإلهي سيتحقق حين نُحقق نحن شروط الحضارة، لقوله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**. ﴾ [الأعراف: 96].

2- فهم سنن التغيير:

أن التغييرَ يجب أن يكون بالعلم (أنظروا)، وأن يكون بعدها بالعمل (أعدوا)، ثم بالتدرج والتأني (ولا تعجل).

3- التفكير والتنظير:

وحين نُجسد ما سبق، يأتي دور النخبة لتُفكر في كيّفيات التغيير، والقادة في العمل على تجسيده، ثم دور الشعوب في الإعانة عليه.

وعليه: كيف نبني الإنسان الشاهد؟

إن بناء الإنسان أصعب بناء على الإطلاق، فنحن لا نتكلم عن فرد (كتلة)، بل نتكلم عن أمة. وهذه المماثلة نجد مالك بن نبي تطرق لها حين تحدث عن إبراهيم عليه السلام، فإبراهيم حين اكتمل وجوده، واشتد ساعده، واستد نظره، وسمه الله بالأمة: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا**﴾ أي ذاتًا بشرية حين وصلت على لحظة الاكتمال وتحقيق الشاهدية تحولت إلى أمة كاملة.

إن أول شرط من شروط البعث الحضاري، هي استبدال القابلية بالاستعمار بالقابلية للحضارة، فالأولى سيطرت على إنسان ما بعد الموحدين، والثانية ستسكن وجدان الإنسان المستقبلي (الشاهد). (بوعرفة & وآخرون، 2014، ص: 37)

إن بناء الإنسان الشاهد، وضع له مالك بن نبي نظريات مترابطة، هي لب مشروعه الحضاري، ويُمكن فعلاً بناء جيل جديد يُحقق الشاهدية الحضارية، إذا تتبعنا العتبات الانبعاثية التي وضعها مع تطويرها، وتجديدها، وتسديده، وتجاوز كثير من الهنات التي أشرنا إليها في دراسات سابقة. (لاكلي. ح، 2023، ص ص: 31 -56)

ويُمكن حصر تلك العتبات فيما يأتي:

1- عتبة الفراغ الكوني

إن الإنسانَ لا يمكن أن يعي ذاته وعيًا تامًا إلى بواسطة لحظة تاريخية فارقة، (Bouarfa, 2019, p. 73) تجعل إنسان النصف يعرف ذاته معرفة تؤهله أن يحلم بالتغيير، والتقدم نحو مثاله التاريخي "الإنسان الشاهد". ولكي يحدث هذا الاستبطان التاريخي يجب على الأمة أن تدخل مرحلة فراغ كوني عبر برامج تعليمية هادفة، تشعر الأمة بلحظة عزلة ظرفية؛ كما حدث لزرادشت.

إن الانعزال لا يُفهم بمعناه المكاني، بل بمعناه الوجداني، يقول بن نبي: **" إذْ يعتزل الإنسان وحيداً، ينتابه شعورٌ بالفراغ الكوني، لكنَّ طريقته في مَلْء هذا الفراغ؛ هي التي تحدِّد طُرُزَ ثقافته وحضارته؛ أي سائر الخصائص الداخلية منها والخارجية لوظيفته التاريخية."** (بن نبي. م، 2002، ص: 17)

وقدم لنا مثالين، الأول يتمثل في حي بن يقظان في جزيرة نائية، والثاني لربنسون كروزو حين عاش منفردًا بجزيرة عقدًا من الزمن.

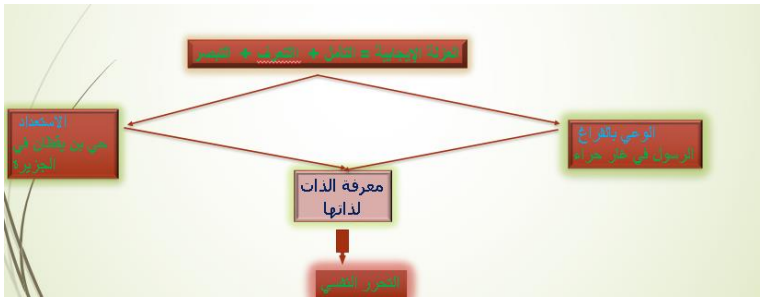

2- عتبة وعي الصعوبات

بعد ما نُدخل الأمة (الجيل المأمول) في مرحلة الفراغ الكوني، يجب الانتقال بالجيل إلى عتبة جديدة، وهي وعي الصعوبات والتحديات، وهي التي وسمها خوسيه ارتيغاس باللحظة الحرجة.

إن ميلاد المجتمع الإسلامي الجديد يبدأ بكل وضوح من بناء الإنسان، وإذا كان الإنسان ليس في مستوى التحدي يكون من الصعب دخول التاريخ. حيث يبدأ العمل الخلاق بإشعار الإنسان بالصعوبات التي يعيشها، وقد أكد مالك بن نبي ذلك في عدة مؤلفات هامة نخص منها بالخصوص كتابه(تأملات) حيث وضع فصلاً عنوّنه: **(الصعوبات بوصفها علامة نمو في المجتمع العربي).**

إن الفرد عندما يقف أمام موقف تحفه الصعوبات، ينتابه القلق والحاجة القصوى للخلاص، فينتقل من حالة الفراغ إلى حالة التوتر النفسي، فيحصل للذات المتوترة استعداد ذهني وجسدي معًا، يحرر الإنسان من الكمون، ويدفعه إلى الحق من أجل تجاوز الصعوبات، والحالة نفسها على المجتمع باعتباره وحدة نفسية: **" إنه بصفة عامة يمكننا عَدّ هذه الصعوبات أزمة نمو تعيشها الأمة العربية، وطبيعي أنه ككل نمو لابد له من تعب وقلق وألم،**

ذلك أنه يقع في المجتمع وفي الفرد نفسه أيضاً شيء من التطاحن، بين قوات سلبية تدعوه إلى السكون، وهي دعوة تجد في طبيعة الإنسان عامة قبولاً بسبب ميله الفطري إلى السهولة، وبين قوات إيجابية تدعوه إلى الكد والعمل، تحثه صعداً إلى الرقي، الذي هورسالة الأمة، وإلى الدفاع عن كيان المجتمع؛ وبصورة عامة إنها تدعوه إلى القيام بالواجبات .. وهكذا نرى أن الصعوبات هي أكبر مبشر بالحياة الاجتماعية الصحيحة ". (بن نبي. م، 1979، ص: 21)

3- عتبة التوتر الخلاق

ننطلق من عبارة شهيرة لتوينبي حين قال: **"إن الصعوبات هي تحد خلاق لأنه يستحق الرد عليه."**

يشهد العالم الإسلامي منذ عصر الموحدين حالة **اللاتوتر** ولا يعرف القلق الحضاري، ونحن الآن ملزمون حسب بن نبي أن نحدث شرارة التوتر والقلق في ضمير إنسان ما بعد الموحدين، حتى نخرجه من كهفيته.

إن التوتر كحالة شعورية، تدفع الإنسان إلى الفعل النقدي الذي سماه بن نبي بالتطهير الذاتي، وبالتالي يدفع الأنا لتسارع في عملية التغير الجذري. (Bouarfa, 2019, p. 80)

وحتما هناك علاقة وطيدة بين مقولة التوتر ومفهوم **الفاعلية**، فانعدام التوتر هو انعدام للفاعلية حتما، حيث يقول بن نبي:**" إننا إذا حللناها إلى عناصرها الأولية البسيطة نجدها تنحصر في عناصر ثلاثة :اليد، القلب، العقل. لأن كل الطاقات الاجتماعية تنطلق منها، والعملية الاجتماعية نفسها لا تخرج عن هذه العناصر الثلاثة: فكل طاقة اجتماعية تصدر حتما من دو افع القلب ومن مسوغات وتوجيهات العقل ومن حركات الاعضاء، فكل نشاط اجتماعي مركب من هذه العناصر، والفاعلية تكون أقوى في الوسط الذي ينتج أقوى الدو افع و أقوم التوجيهات و أنشط الحركات ".** (بن نبي. م، 1979، ص: 38)

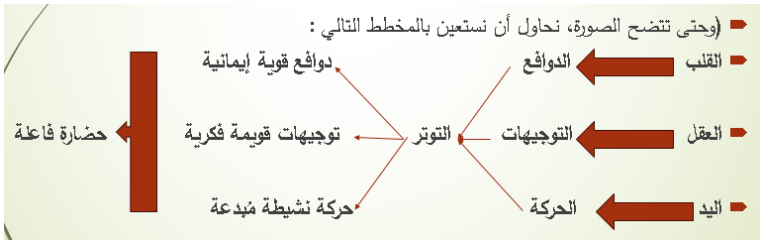

4- عتبة التوازن: الطاقة الحيوية بين الهدم والبناء

إن التوتر باعتبار حالة ضرورية لبعث الذات، إلا أنه يجب أن ندرك أن التوازنَ يجب أن يكون هو الأساس في بناء الإنسان الشاهد، ولا نركز فقط على عالم الأفكار فقط، بل علينا أن ندرس الطاقة الحيوية بالإنسان، فالإنسان المُرتقب: **"يتوجب على الفرد تلبية حاجاته الحيوية مهما كان نوع الحياة التي يحياها، سواء أكان منعزلاً مثل (حي بن يقظان) أو ساكناً في مدينة كبيرة.**

لذا يتعين عليه أن ينفق من طاقته الحيوية التي خُصَّت بها طبيعته، غير أن الطاقة هذه- وهي في طبيعتها الهيميَّة- لا تندمج مع الحياة في المجتمع؛ بحيث إن اندماج الفرد الاجتماعي يجب أن يراعي احتياجاته من ناحية، واحتياجات المجتمع الذي يندمج فيه من ناحية أخرى.

والمجتمع في الواقع يفرض قواعد وضوابط وقوانين وتقاليد، وحتى بعض الأذواق والأحكام المسبقة هي بالنسبة إليه ليست بأقل حيوية.

وإذن فإن اطراد اندماج الفرد يتدرج مستجيباً لطبيعته من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى مستجيباً لنسق من أصول وقواعد في الحياة يمكن تعريفه وهو في مرحلة متقدمة بمثابة عقد اجتماعي.". (بن نبي. م، 2002، ص: 49)

والغاية من التوازن بين الجانب الروحي والغريزي هو:

أ_ الانسجام الحضاري: مطلب ضروري بين جميع القوى الفعالة في البنية الإنسانية، والمحافظة على الانسجام الذاتي يتطلب من المجتمع أن يضع القيم والأطر التي ترشد الطاقة الحيوية نحو الأفضل، والتحرر من الفوضى الحيوية التي تهدم الإنسان وتخرجه من مرحلة التحضر إلى ما بعده. (Bouarfa, 2019, p. 93)

ب_ التكيف التاريخي: الواقع يفرض على الإنسان أن يتكيف مع شروطه الراهنة، فإذا كان العالم البيولوجي لامارك، حدد أن الوظيفة تخلق العضو، فهذا يعني أن الطاقة الحيوية هي أحد أبرز العناصر التي تجعل الإنسان يتكيف مع الواقع.

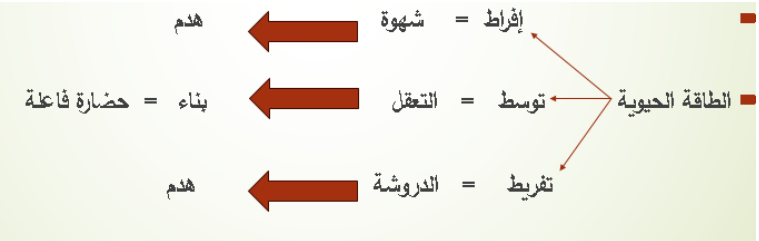

5- **التحدي الخلاق:**

بعد أن يمر الإنسان الشاهد بمراحل بناء الإنسان، يصل آخر الأمر إلى عتبة الفعل الحضاري، وهنا يكون الإنسان الشاهد تحصل على قوتين:

1- الإرادة الحضارية: (Le vouloir). 2- الإمكان الحضاري: (Le pouvoir) .

ويستطيع عندئذ أن يتحدى جميع الصعوبات، وتكون استجابته قوية بناءً على قوة التوتر، إن حاله يشبه حالة سيدنا بلال لحظة التعذيب من قبل قريش، لقد كان توتره أقوى من صعوبات ذاتها، والنتيجة انهيار المُعذِب ونجاة المُعَذَب.

يؤدي فهم وتحدي الصّعوبات لأمة خرجت من الحضارة والتاريخ الحي إلى نتيجتين متضادتين؛ فإما تنتج طاقة خلاقة، ترفع الفرد من حالة الانحطاط، وتُخرجه من وضع "إنسان الكتلة" إلى "إنسان الشّاهد". وإما أن تؤدي إلى شل كل طاقات الفرد، فيتجه نحو التيه والذوبان، الذي يقوده إلى الاندماج في مجتمع جديد ناشئ يحمل ميكانزمات الحضارة والقوة متنازلاً عن كل أصالة لديه، كما حدث لكثير من الشعوب العريقة التي لم يبق لها في حاضرنا سوى شواهد على وجودها ذات قرن مضى وانقضى، أو أن يتقوقع على نفسه تقوقعًا يجعله مغلوبا على أمره.

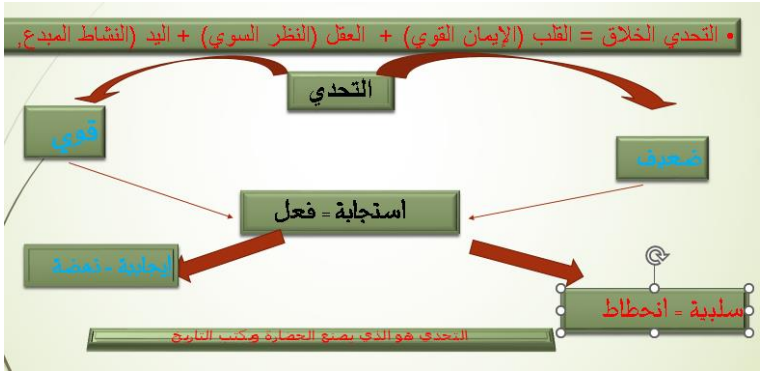

***- خلاصة:**

يُمثل "الإنسان الشاهد" أنموذجًا حضاريًا يستطيع أن يشق الطريق نحو العالمية الإسلامية الثانية، وأن يعود إلى مسرح التاريخ، وقد تنبأ مالك بن نبي بهذا التقدم نحو التاريخ حين لخص مشروعه في قوله: "**ولو سمح لي أن ألخص وجهة نظر عبرت عنها منذ ربع قرن لقلت: إنه ليس من الضروري ولا من الممكن، أن يكون لمجتمع فقير، المليارات من الذهب كي ينهض، وإنما ينهض بالرصيد الذي لا يستطيع الدهر أن ينقص من قيمته شيئًا، الرصيد الذي وضعته العناية الإلهية بين يديه: الإنسان، والتراب، والوقت.**" (بن نبي. م، 2002، ص: 69)

ويمكن آخر الأمر أن ندعو إلى فهم مكر التاريخ، وأن الله سبحانه وتعالى وضع للكون سننًا، يجب علينا أن نفهمها ونفقهها، فالحضارة مشروع قوة وكفاح، وليس هبة ربانية يهبها الله لمن لا يراعي سننه في الكون.

ومن بين أهم تلك السنن:

1- من أفق الحضارة إلى وعي المكر (فهم مقاصد العصر)

2- من مكر التاريخ إلى مكر العقل. (فهم مطالب الغد)

3- من مكر العقل إلى مكر الغريزة. (فهم غايات الوجود)

4- من مكر الغريزة إلى مكر الله. (فهم الحكمة من الخلق)

**

*- المصادروالمراجع

1- مصادرمالك بن نبي

- (1969). ***إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث***. ط1. بيروت: دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع.
- (1979). ***تأملات***. ط1. دمشق: دار الفكر.
- (1984). ***مشكلة الثقافة***. ترجمة: عبد الصبور شاهين. ط4. دمشق: دار الفكر.
- (a1986). ***شروط النهضة***. ترجمة: عبد الصبور شاهين & عمر كامل مسقاوي. د.ط. دمشق: دار الفكر.
- (b1986). ***وجهة العالم الإسلامي***. ترجمة: عبد الصبور شاهين. ط5. دمشق: دار الفكر.
- (1991). ***دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين***. ط1. دمشق: دار الفكر.
- (2001). ***فكرة الإفريقية الأسيوية***. ط3. دمشق: دار الفكر.
- (a2002). ***بين الرشاد والتيه***. د.ط . دار الفكر.

- (b2002). **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي. ترجمة:** بركة بسام & شعبو أحمد. د.ط. دمشق: دار الفكر.
- (2009). ***لبيك: حج الفقراء***. ترجمة: خليف زيدان. ط1. دمشق: دار الفكر.

2- المراجع

- بوعرفة، عبد القادر. (2001). ***الإنسان المستقبلي في فكر مالك بن نبي***. ط1. الجزائر: دار الغرب.
- بوعرفة، عبد القادر. (2006). ***الحضارة ومكر التاريخ تأملات في فكر مالك بن نبي***. ط1. الجزائر: رياض العلوم.
- بوعرفة، عبد القادر & وآخرون. (2014). ***تأملات في فكر مالك بن نبي***. ط1: الجزائر: دار القدس العربي.
- خوسيه، أورتغا إي غاسيت. (2011). تمرد الجماهير. ترجمة: علي إبراهيم أشقر. ط1. السويد: التكوين للطباعة والنشر والتوزيع.
- لاكلي، حنان. (2023). ***عبد القادر بوعرفة هواجس الماضي، الحاضر والمستقبل***. ط1. الجزائر: منشورات الوطن اليوم.

Bouarfa, A. (2019). ***Malek Bennabi: Une vie, une œuvre, un combat*** .(1st ed.). Casablanca: Centre culturel du livre .